فلسفة الأخلاق الفارابية: بين الفلسفة اليونانية والقيم الإسلامية

تاريخ الارسال:19-01-2018	تاريخ القبول: 06-08-2018	تاريخ النشر:15-10-2018

د. بن دحمان حاج، جامعة وهران 2 محمد بن أحمد
Bendahmane.hadj@gmail.com

الملخص:
لقد تناولت الفلسفة الإسلامية جل مباحث الفكر الفلسفي بشكلها الحالي، وكان لفلاسفة الإسلام رؤى فلسفية أصيلة حول القضايا الفكرية التي تعرضوا لها. ويمكننا التأكيد على أن أهم مبحث استحوذ على اهتمام فلاسفة الإسلام، هو "مبحث القيم" الذي يبحث في "المايجب أن يكون" والذي يدرج ضمنه فلسفة الأخلاق التي أولى لها لها فلاسفة الإسلام عناية كبيرة في مؤلفاتهم، وأبرز من اهتم بفلسفة الأخلاق في الفلسفة الإسلامية نجد الفيلسوف أبو نصر الفارابي، حيث سيقتصر هذا المقال على دراسة فلسفة الأخلاق عند الفارابي وتبيان مواطن تأثره بالأخلاق الأرسطية.
الكلمات المفتاحية: الأخلاق، القيم، الفضيلة، السعادة، الخير، العدالة، السياسة، المطلقية، النسبية.

Abstract:
Islamic philosophy has dealt with the bulk of philosophical thought in its current form. The philosophers of Islam have original philosophical views on the intellectual issues they have been subjected to. We can emphasize that the most important subject of the attention of the philosophers of Islam is the "value study" which examines "what must be", which includes within it the philosophy of ethics, which gave the philosophers of Islam great care in their writings. The most prominent interest in the philosophy of ethics, we find the philosopher Abu Nasr Al-Farabi, where this article will be limited to study the philosophy of ethics at Al-Farabi, and to show his influence on the philosophy of Aristotelian ethics.

Words Key : ethics, values, virtue, happiness, goodness, politics, relativism absolutism.

المقدمة:

يقتصر هذا المقال على دراسة فلسفة الأخلاق عند الفارابي* وتبيان مواطن تأثره بالأخلاق الأرسطية. وإذا تساءلنا لماذا الفارابي؟ فذلك لأنه من أكثر الفلاسفة اهتماماً بالأخلاق، لكثرة ما كتبه عنها، وما ألفه فيها من كتب ورسائل.

* - أبو النصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي، ولد في واسج في مقاطعة فاراب بتركستان، من أب يقال إنه كان قائداً عسكرياً في بلاط السامانيين. درس في بغداد أولاً على معلم مسيحي هو يوحنا بن حيلان، ودرس بعد ذلك المنطق والفلسفة والنحو والصرف والعلوم والرياضيات والموسيقى وارتحل إلى حلب في 330ه/941م. واستقر في مجلس سيف الدولة، ثم قام بعدة أسفار وصولاً إلى القاهرة، ومات في دمشق في 339ه/950م عن ثمانين عاماً. لقب بالمعلم الثاني. كان يميل إلى حياة التأمل والنظر، ويؤثر العزلة والهدوء، لقد بدا حياته متفلسفاً وقضى كهولته متفنناً وختم حياته متصوفاً. لقد كان الفارابي واسع الثقافة، موسوعي المعرفة، أنشأ مذهباً فلسفياً متكاملاً، إلا أنه قوي التفكير النظري، ضعيف لاالتدبير العملي، قال عنه لويس ماسينيون إن الفارابي أول مفكر مسلم استحق لقب فيلسوف. له مؤلفات كثيرة، منها مقدمات، ومختصرات، ومنها شروح وتعليقات، ومنها ردود على المتقدمين، ومنها مؤلفات خاصة تتضمن آراءه الفلسفية وأشهر كتبه: -كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو، -كتاب

لقد ذكر الفارابي الأخلاق وجعلها أحد فرعي "العلم المدني" في كتابه "إحصاء العلوم" وكان في ذلك يترسم خطى أرسطو سواء في تصنيفه للعلوم أو في فهمه للأخلاق، حيث قسم العلوم إلى ثمانية أقسام وهي: علم اللسان، وعلم المنطق، وعلم التعاليم، والعلم الطبيعي، والعلم الإلهي، والعلم المدني، وعلم الفقه، وعلم الكلام، وكهذا نرى أن الفارابي عدّد العلوم وأجزاءها كما جاءت عند أرسطو، وأضاف إليها علّمي الفقه والكلام، وهما عِلمان إسلاميّان كانت لهما في عصره أهمية كبرى. وما يهمنا هنا هو العلم السادس أي العلم المدني، لأننا نجد فيه تعريف الأخلاق، ولتوضيح ذلك نعتمد على النص التالي: "فالعلم المدني هو الذي يفحص عن أصناف الأفعال والسنن الإرادية وعن الملكات والأخلاق والسجايا والشيّم التي عنها تكون تلك الأفعال والسنن، وعن الغايات التي لأجلها تفعل، وكيف ينبغي أن تكون موجودة في الإنسان، ويميز بين الغايات التي لأجلها تفعل الأفعال وتستعمل السنن ويبين أن منها ما هي في الحقيقة سعادة وأن منها ما هي مظنون أنها سعادة من غير أن تكون كذلك، وهذا العلم جزءان:

-جزء يشتمل على تعريف السعادة، ويميز ما بين الحقيقة منها والمظنون به، وعلى إحصاء الأفعال والسير والأخلاق والشيم الإرادية الكلية التي شأنها أن توزع في المدن والأمم ويميز الفاضل منها من غير الفاضل.

-وجزء يشتمل على وجه ترتيب الشيم والسير الفاضلة في المدن والأمم، وعلى تعريف الأفعال الملكية التي بها تمكن السير والأفعال الفاضلة"[1]. أما في كتابه" تحصيل السعادة" يرى المعلم الثاني (باعتبار أرسطو المعلم الأول) أن الأخلاق علم يفحص عن الغرض الذي لأجله كوّن الإنسان، "وهو الكمال الذي يلزم أن يبلغه، ثم يفحص عن جميع الأشياء التي بها يبلغ الإنسان ذلك الكمال أو أن ينتفع في بلوغه، وهي الخيرات والفضائل والحسنات، ويميزها عن الأشياء التي تعوقه عن بلوغ ذلك الكمال، وهي الشرور والنقائص والسيئات

وهذا هو العلم المدني، وهو علم الأشياء التي بها، أهل المدن ينال السعادة كل واحد بمقدار ما أعد له بالفطرة"[2]، ومن خلال تعريف الفارابي للأخلاق في كتابيه المذكورين, نلاحظ أن " الأخلاق عند كل من الفارابي و أرسطو علم عملي، أي أنه يقوم على ممارسة الأفعال المحمودة وإتباع القدوة الصالحة لاكتساب ملكة الأفعال الخلقية"[3]، والفارابي يعطي شأناً كبيراً للأخلاق، "فكما أن علم المنطق يضع قوانين المعرفة فكذلك علم الأخلاق يضع القوانين الأساسية التي ينبغي أن يسير عليها الإنسان في سلوكه، بالرغم من أن شأن العمل والتجربة في الأخلاق أكبر مما هو في المنطق"[4]، وإذا كان تأثر الفارابي في فلسفته بصفة عامة وفلسفته الخلقية بصفة خاصة بالفلسفة اليونانية، حقيقة لا شك فيها، فإن الدارسين لفلسفته، قد اختلفوا حول أي الفيلسوفين له تأثير كبير عليه، هل هو أفلاطون أم أرسطو؟ نجد المستشرق " دي بور" يرى " أن الفارابي في معالجته للأخلاق يوافق أفلاطون تارة، وأرسطو تارة أخرى، وقد تجاوز آرائهما أحياناً نازعاً منزع تصوّف وزهد"[5]. أما الباحث "ناجي التكريتي" في كتابه "الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام" يؤكد على أنه "إذا كان الفارابي قد اقتفى أثر أرسطو في المنطق والطبيعيات، فلأفلاطون أثر كبير عليه في

فصوص الحكم، -كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة، -كتاب السياسة المدنية، -كتاب الموسيقى الكبير، -رسالة في إحصاء العلوم.

[1] - الفارابي، إحصاء العلوم، المركز القومي، بيروت، لبنان، 1991، ص 38-39.

[2] - الفارابي، تحصيل السعادة، قدم له وعلق عليه وشرحه علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2006، ص 46.

[3] - محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1986، ص 380.

[4] -ت، ج، دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الدار التونسية للنشر، 1980، ص 229.

[5] -ت، ج، دي بور، المرجع السابق، ص 229.

الأخلاق والسياسيات"[1]، أما الباحث محمد عابد الجابري فيرى أنه رغم "تأثر الفارابي في الأخلاق بأرسطو، وفي فكره السياسي بأفلاطون، ولكن لم يسايرهما في كل ما ذهبا إليه"[2]، وفي دراستنا للفلسفة الخلقية عند الفارابي، نحاول التطرق إلى أهم المواضيع في هذا المجال، وهي على الخصوص موضوع السعادة والفضيلة واللذة وموضوع علاقة السياسة بالأخلاق.

1-نظرية السعادة عند الفارابي:

لقد صادفت نظرية السعادة* هوى لدى فلاسفة المسلمين، وقد تأثروا من غير شك بآراء فلاسفة اليونان في هذا المجال. ولكن ذلك لا يعني أنهم كانوا مجرد ناقلين، فقد كانت لهم وجهة نظر متميزة تعبر عن هويتهم الإسلامية.

لقد ذكر الفارابي لفظة "السعادة" في عناوين المصنفات التي وضعها حول الأخلاق كما في " التنبيه على سبيل السعادة" و"تحصيل السعادة". فلماذا أصر الفارابي على "وسم كتبه الأخلاقية باسم " السعادة" ولم يسمها بأسماء أخرى كالفضيلة والأخلاق وما إليها؟"[3]، والسبب في ذلك هو أنه متأثر بالفلسفة اليونانية، وهذه الأخيرة تمتاز بأنها "أخلاق سعادة"، والسعادة عند الفارابي مرتبطة بالسلوك الفردي (سعادة الفرد) على مستوى علم الأخلاق ومرتبطة بالسلوك الجماعي على مستوى علم السياسة. وهنا نلاحظ الفارابي كأرسطو يجعل الأخلاق فرعاً للسياسة، فإذا كان مدار البحث في الأخلاق دراسة السلوك الفردي المؤدي إلى اكتساب الفضائل وتحصيل السعادة لكل فرد على حدة، فإن مجال البحث في السياسة دراسة كيفية تحصيل السعادة للمجتمع بأسره.

ولنبدأ الآن بالسعادة الفردية. إن السعادة في نظره هي الخير الأقصى وآثر الخيرات جميعاً وأنها تُطلب لذاتها لا لشيء آخر، حيث يقول الفارابي: "السعادة هي غاية ما يتشوقها كل إنسان، وأن كل ما ينحو بسعيه نحوها، فإنما ينحوها على أنها كمال ما...وكل كمال غاية يتشوقها الإنسان، فإنما يتشوقها على أنها خير ما، فهو لا محالة مؤثر لما كانت الغايات التي يتشوقها على أنها خيرات مؤثرة، كثيرة كانت السعادة أجدى الخيرات المؤثرة. وقد تبين أن السعادة من بين الخيرات أعظمها خيراً، ومن بين المؤثرات أكمل كل غاية يسعى الإنسان نحوها، إذ أنها تؤثر لذاتها وما يؤثر لذاته أفضل مما لا يؤثر لغير ذاته"[4]، ويقول أيضاً في موضع آخر: "السعادة هي الخير على الإطلاق، وكل ما ينفع في أن تُبلغ به السعادة وتُنال به فهو أيضاً خير لأجل ذاته لكن لأجل نفعه في السعادة وكل ما عاق عن السعادة بوجه ما فهو الشر على الإطلاق"[5]، هذا القول سواء الأول أو الثاني

---

[1] - ناجي التكريتي، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1992، ص 302.

[2] -محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص 345.

* - السعادة لغة تشتق من فعل سعد وأسعد، ومن توابعها المعجمية السعد والسعودة والسعود. ومن ثم، فكلمة " السعد" - عند ابن منظور- اليمن، والسعودة: النحوسة، والسعادة خلاف الشقاوة، وقد سعد يسعد سعداً وسعادة، فهو سعيد: نقيض شقي، وسعد: فهو مسعود، والجمع سعداء. ونفهم من هذه الدلالات اللغوية أن السعادة نقيض الشقاوة والبؤس والنحس، وأنها بمعنى الرضى والبركة والخير والنماء، وتحيل كذلك على المساعدة والعمل والأساس والتعاون. وبهذا تكون السعادة هي تحقيق اللذة والخير عن طريق التدبير والعمل المثمر والتعاون الجماعي.

ومن الناحية الاصطلاحية، فالسعادة في المفهوم الفلسفي العام هي حالة إرضاء وجودي قد يكون مادياً أو عقلياً أو وجدانياً، وتترابط هذه السعادة بالخير والعدل والواجب والعقل والقلب والجمال والوجود والفضيلة والكمال. كما أن السعادة هي أقصى المراتب التي ينبغي أن تصل إليها الذات البشرية الكائنة من أجل فرض إنيّتها وتحقيق وجودها الأنطولوجي والأكسيولوجي (الأخلاقي).

[3] - فوزي عطوي، *الفارابي*، (سلسلة أعلام الفكر العربي)، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1 , 2002، ص 126.

[4] - ماجد فخري، الفكر الأخلاقي العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص 306.

[5] - الفارابي، كتاب السياسة المدنية، قدّم له وشرحه وبوّبه علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1996، ص 79.

يوضح لنا مدى تأثر الفارابي بالفلسفة اليونانية عامة والفلسفة الخلقية الأرسطية خاصة في اعتبار الأخلاق سبيلاً إلى تحقيق الكمال الأسمى، وفي كون السعادة هي الغاية الأخلاقية المرجوة، فكل إنسان إذن يطلب السعادة، وهو يطلبها لأنها كمال من الكمالات الإنسانية، وهذه الكمالات غايات يطمح الإنسان إلى تحقيقها ويؤثرها على غيرها.

ولما كانت السعادة هي من بين الغايات أعظمها قدراً، وأنها إذا تحققت للإنسان لم يحتج لغاية أخرى غيرها، تبين لنا أنه إنما تطلب لذاتها وأنها مكتفية بذاتها من حيث أنها الخير الأقصى للإنسان، والسعادة بهذا المعنى ليست في الثروة، كما يرى بعض الناس، ولا في التمتع باللذات كما يتوهم آخرون، ولا في الرياسة كما يعتقد بعضهم، ولا في شيء آخر من هذا القبيل، إن المقصود هنا هي السعادة الحقيقية التي هي نهاية الكمال الإنساني، وهنا يقول المفكر محمد عابد الجابري " أن الكمال مفهوم أرسطي أساسي"[1]، ويرى الفارابي أن الإنسان أو صفاته أو سلوكه أي الأعمال السلوكية، منها ما يكون موضوعاً للمدح أو الذم، ومنها ما لا يكون موضوعاً لا للمدح و لا للذم، والسعادة ينالها بالصنف الأول من أحوالها أي " التي يلحقه بها حمد أو ذم"[2].

وهذه الأحوال ثلاثة:

1 ـ الأعمال الجسمية أو أفعال البدن كالمشي والقيام والقعود وغيرها.

2 ـ الحالات الانفعالية أو كما يسميها " عوارض النفس" مثل الشهوة واللذة والفرح والغضب.

3 ـ التمييز بالروية أو التمييز بالذهن.

ويمكن أن نجمع هذه الأحوال الثلاثة في المقولة التالية: "وكما أن الأفعال يلحقها المدح متى كانت جميلة، والذم متى كانت قبيحة، فكذلك عوارض النفس يلحقها المدح متى كانت على ما ينبغي، ويلحقها الذم متى كانت على غير ما ينبغي، والتمييز يلحقه المدح متى كان جيّداً، والذم متى كان رديئاً"[3]، فيجب إذن بيان متى تكون الأفعال جميلة، ومتى تكون عوارض النفس على ما ينبغي، ومتى يكون التمييز جيداً.

تكون أفعالنا البدنية وعوارض أنفسنا جميلة بحيث ننال بها السعادة، متى كانت طوعاً واختياراً، وكان اختيارنا لها لأجل ذاتها، و كان ذلك في كل ما نفعله، و طوال حياتنا كلها، حيث يقول الفارابي:" والسعادة ليست تُنال بالأفعال الجميلة متى كانت عن الإنسان لهذه الحال، لكن أن تكون له و قد فعلها طوعاً و باختياره، ولا أيضاً إذا فعلها طوعاً في بعض الأشياء في بعض الأزمان، لكن أن يختار الجميل في كل ما يفعله وفي زمان حياته بأسره"[4]، وكذلك جودة التمييز يجب أن تكون بحيث يشعر الإنسان بما يميز، وكيف يميز في كل شيء يميزه بحيث يقصد بها القبيح طوعاً واختياراً، ومنه فالسعادة " تُنال السعادة عند الفارابي بممارسة الأعمال المحمودة الصالحة بطريقة إرادية متواصلة، والإنسان حر في عمل الخيّر لأن له بالقوة خصالاً يتمكّن من تنميتها فتصبح له ملكة، والملكة هي ما لا تزول بسهولة"[5]. أما في كتابه الآخر وهو "السياسة المدنية" نجد الفارابي يُسوي بين الخير والسعادة وهي الخير على الإطلاق، وحول هذه المساواة يقول الفارابي: "والسعادة هي الخير على الإطلاق. وكل ما ينفع في أن تُبلغ به السعادة وتُنال به فهو أيضاً خير لا لأجل ذاته لكن لأجل نفعه في السعادة، وكل ما عاق عن السعادة بوجه ما فهو شر على الإطلاق"[6].

من خلال هذا القول نلاحظ أن الفارابي يجعل الخير هو ما يساعد على السعادة والشر هو ما يعيق عن الوصول إليها. يؤكد الفارابي على مبدأين للأخلاق هما الطبع والإرادة، حيث يقول: " والخير النافع في بلوغ السعادة قد يكون شيئاً مما هو موجود بالطبع وقد يكون ذلك بإرادة، والشر الذي

---

[1] ـ محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 346.

[2] ـ ماجد فخري، المرجع السابق، ص 307.

[3] ـالمرجع نفسه، ص 307.

[4] ـ المرجع نفسه، ص 307.

[5] ـ حنا الفاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط3، 1992، ج2، ص 136.

[6] ـ الفارابي، كتاب السياسة المدنية، المصدر السابق، ص 7.

يعوق عن السعادة قد يكون شيئاً مما يوجد بالطبع وقد يكون بإرادة"[1]، وهو هنا يوافق المعلم الأول القائل بإرادة الخير والشر، والأفعال التي هي بالطبع عند الفارابي تكون صادرة عن نفس الأجسام السماوية (إن النفس عند الفارابي ثلاث نفوس: نفس الاجسام السماوية، ونفس الإنسان، ونفس الحيوان). أما الخير الإرادي (الجميل) والشر الإرادي (القبيح) فهما صادران عن القوة الناطقة* التي هي خاصة بالإنسان، وهي التي تمكنه من إدراك المعقولات والتمييز بين الجميل والقبيح واكتساب الصناعات والعلوم ويقترن بها عند الإنسان نزوع إلى ما يفعله. وتنقسم القوة الناطقة إلى قسمين: أحدهما عملي، وهو الذي يستنبط ما يجب فعله من الأفعال الإنسانية والآخر عملي أو نظري وهو الذي يتم به جوهر النفس، ويصير جوهراً عقلياً بالفعل يقول الفارابي: "والناطقة منها النظرية و منها العملية والعملية منها مهنية ومنها مروية، فالنظرية هي التي بها يحوز بها الإنسان علم ما ليس شأنه أن يعمله إنسان أصلاً والعملية هي التي بها يعرف ما شأنه أن يعمله الإنسان بإرادته، والمهنية منها هي التي تحاز الصناعات و المهن، والمروية هي التي يكون بها الفكر والروية في شيء مما ينبغي أن يعمل أولا يعمل"[2]، وفي موضع آخر وفي تعريفه للقوة الناطقة نجد الفارابي يؤكد على أن الجزء العملي من هذه القوة جعل ليخدم الجزء النظري و"النظري لا ليخدم شيئاً آخر، بل ليوصل بها إلى السعادة"[3] ، يذكر الفارابي أن العوامل التي تدفع المرء إلى الشر وهي جهل الناطقة بالسعادة الحقة وتوهمها إياها في اللذة أو الكرامة أو النفع وأشباه ذلك، واشتياق هذه المتوهمات والسعي إليها ومساعدة المتخيلة والحساسة في القصد إليها وحول هذه الفكرة نجد الفارابي يقول: "ومتى توانى الإنسان في تكميل الجزء الناطق النظري فلم يشعر بالسعادة فينزع نحوها ونصب الغاية التي يقصدها في حياته شيئاً آخر سوى السعادة من نافع أو لذيذ أو غلبة أو كرامة واشتياقها بالنزوعية وروّي في استنباط ما ينال به تلك الغاية بالناطقة العملية وفعل تلك الأشياء بآلات القوة النزوعية وساعدته المتخيلة والحساسة على ذلك كان الذي يحدث حينئذ شراً كله"[4]، والنفس كما الجسم، كما مر معنا، فهي صورة الجسد وقومه ومادته بمعنى النفس متصلة بالبدن أوثق اتصال. ولقد أوردنا هذه العلاقة بينهما حتى نُبين أن السعادة تقوم عند المعلم الثاني قارئ محاورة فيدون-هي المحاورة التي برهن فيها أفلاطون على خلود النفس بمناسبة موت سقراط-في تحرر النفس من قيود المادة أغلالها فتصير عقلاً كاملاً أي أن تصير نفس الإنسان من الكمال والتخلص من أدران المادة وغواشيها بحيث لا تحتاج في قوامها إلى المادة وأن تبقى على تلك الحال دائماً أبداً. ولكن كيف تصل النفس لهذه السعادة القصوى؟ يقول المعلم الثاني إنها "تبلغ ذلك بأفعال ما إرادية بعضها أفعال فكرية وبعضها أفعال بدنية وليست بأي أفعال اتفقت، بل بأفعال محدودة مقدرة تحصل عن هيئات ما وملكات ما مقدرة"[5]، وقد فرق الفارابي بين نوعين من الأفعال:

---

[1] - الفارابي، كتاب السياسة المدنية، المصدر السابق، ص 79.

* - يعرف الفارابي النفس مثل أرسطو على " إنها كمال أول لجسم طبيعي آلي ذي حياة بالقوة " يفيضها العقل الفعال كلما حدث بدن صالح لاستقبالها، فليس لها وجود سابق على البدن، ولا تتناسخ في أبدان مختلفة. فإذا نظرنا إليها من حيث ذاتها فهي جوهر روحاني، وإذا نظرنا إليها من حيث علاقتها بالبدن، فهي صورته ومبدأ حركته. وقوى النفس متعددة، منها قوى محركة وأخرى مدركة. فأما القوى المحركة، منها القوة المنمية وهي النفس النامية عند ارسطو وتوجد في النبات والحيوان والإنسان. ومنها القوى النزوعية، فهي إما شهوانية أو غضبية. ما يمكن ملاحظته هو أن أهمية القوة الغاذية تكمن في أنها تخدم البدن، وكذلك القوة الحاسة والقوة المتخيلة اللتان جُعلتان لتخدمان البدن وتخدمان القوة الناطقة. ولأن قوام القوة الناطقة هو بالبدن أولاً فإن خدمة القوى الثلاث، الغاذية والحاسة والمتخيلة للبدن إنما ترجع لخدمة الناطقة. فهي في الأساس، إنما تخدم القوة الناطقة. وهذه القوة الناطقة منها عملية ومنها نظرية، والعملية جعلت لتخدم النظرية، والنظرية لا لتخدم شيئا آخر بل ليوصل بها إلى السعادة.

[2] - الفارابي، كتاب السياسة المدنية، المصدر السابق، ص 24.

[3] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990، ص 81.

[4] - الفارابي، كتاب السياسة المدنية، المصدر السابق، ص 81.

[5] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص 81.

النوع الأول: أفعال تساعد في بلوغ السعادة وقد أطلق عليها " الأفعال الجميلة"، وهي تصدر عن الفضائل وهذه الخيرات هي لا لأجل ذواتها، بل إنما هي خيرات لأجل السعادة.
النوع الثاني: أفعال تعوق عن تحقيق السعادة، وقد أطلق عليها "الشرور" و"هي الأفعال القبيحة والهيئات والملكات التي تكون عنها هذه الأفعال هي النقائص والرذائل والخسائس"، وعلى ذلك فالسعادة تتحقق وتأتي:
أولاً: عن طريق الابتعاد عن الأعمال القبيحة والشهوات.
ثانياً: عن طريق العقل والحكمة والتعقل.
فهو إذن " كما تأثر بأرسطو من أن السعادة تأتي عن طريق التأمل العقلي، تأثر أيضاً بأفلاطون وأفلوطين في التأمل
والاتصال والزهد* والتشبه بالله"[1]. وفي كتابه "التنبيه على سبيل السعادة" يرى أن سبيل الوصول إلى السعادة، تكون صناعة المنطق هي أول ما ينبغي سلوكه. فنحن ننال السعادة إذا اقتنينا الأشياء الجميلة من أفعال وفضائل، وهذه تكون لنا بالفلسفة، حيث يقول الفارابي: "لما كانت السعادات إنما ننالها متى كانت الأشياء الجميلة قُنية، وكانت الأشياء الجميلة إنما تصير لنا قنية بصناعة الفلسفة، فلازم ضرورة أن تكون الفلسفة هي التي بها تنال السعادة"[2]، إذن ننال السعادة بالفلسفة التي ننالها بجودة التمييز، التي تكون بحسب قوة الذهن على إدراك الصواب وتمييزه عن الخطأ، "وقوة الذهن إنما تحصل متى كانت لنا قوة بها نقف على الحق إنه حق بتيقن فنعتقده وبها نقف على ما هو باطل أنه باطل بتيقن فنتجنبه ..والصناعة التي نستفيد هذه القوة تسمى صناعة المنطق"[3]، لأن المنطق هو العلم الذي به نميّز الخطأ الذي يُظنّ به أنه صواب والصواب الذي يُظنّ به أنه خطأ.
وبهذا تكون السعادة التي هي الغاية من الفضائل والأفعال الجميلة مرتبطة بالحكمة التي تقوم على صناعة المنطق. وهذا يجعل العقل ذا أهمية رئيسة في الوصول إلى السعادة والحصول عليها. فالفارابي "ينظر إلى العقل من أربعة زوايا: الأولى، المعرفة الإنسانية، والثانية، النظام الكوني، والثالث ما بعد الطبيعة، والرابعة الزاوية الأخلاقية والسياسية"[4].
أما في كتابه" تحصيل السعادة" نجد الفارابي يؤكد على أن السعادة إنما تكون في الحياة الدنيا والآخرة معاً ولا تقتصر على الحياة الدنيا حين تكون النفس في الجسد، فهو يقول: "الأشياء الإنسانية التي إذا حصلت في الأمم وفي أهل المدن حصلت لهم بها السعادة الدنيا في الحياة الأولى، والسعادة القصوى في الحياة الأخرى"[5]، ويكرر نفس هذه الفكرة في موضعين مختلفين في كاتبه "الملة". ففي الموضع الأول، وفي معرض تعريفه للعلم المدني نجده يقول: "ثم يميّز السير والأخلاق والملكات التي إذا استُعملت في المدن أو الأمم عمرت بها مساكنهم ونال بها أهلها الخيرات في هذه الحياة الدنيا والسعادة القصوى في الحياة الأخرى"، أما الموضع الثاني فيقول فيه: "حتى تتم الخيرات الإرادية في كل واحدة من المدن بحسب رتبته وإستئهاله ليصل لأجل ذلك جماعات الأمم والمدن إلى السعادة في هذه الحياة والحياة الآخرة"[6]. وتقسيم السعادة إلى دنيوية وأخروية يعكس آثار عقيدته الإسلامية عليه، فسعادة الحياة الدنيا متاعها قليل والآخرة خير وأبقى،

* - لم يكن الفارابي من الذين يقولون ولا يفعلون، بل كان فيلسوفاً حقاً، يعمل على أن تُطابق حياته فلسفته، تراه زاهداً، متجنباً عن الدنيا، مقتنعاً بما يقوم بأوده، وأنه مع بالغ إكرام سيف الدولة له، لم يكن يتناول من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضية في اليوم، يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه.

[1] - ناجي التكريتي، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام، المرجع السابق، ص 305.

[2] - ماجد فخري، المرجع السابق، ص 315.

[3] - ماجد فخري، المرجع نفسه، ص 315.

[4] -MAJID FAKHRY ,*HISTOIRE DE LA PHILOSOPHIE ISLAMIQUE* (traduit de l'ang Marian nasr, les éditions du CERF, Paris, 1989, p 145.

[5] -الفارابي، الفارابي، تحصيل السعادة، المصدر السابق، ص 25.

[6] -الفارابي، كتاب الملة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990، ص 164.

فالمدينة الأرضية ـ مهما يكن كمالها ـ ليست غايتها في نفسها، وإنما هي تدرج إلى السعادة العليا التي تنالها النفوس الزكية في العالم الآخر "فالنفوس الخيرة العارفة هي التي تبقى وتدخل العالم العقلي، وكلما زادت درجتها في المعرفة والفضيلة في هذه الحياة علا مقامها بعد الموت وزاد حظها من السعادة في الحياة الأخرى"[1].

2-المدينة الفاضلة وعلاقتها بالسعادة عند الفارابي:

لقد ذكرنا سابقاً أن الفارابي يجعل الأخلاق فرعاً للسياسة، حتى أن هناك من يؤكد على أن "المحتوى الأخلاقي هو الغالب في فلسفة الفارابي وتكون السياسة عنده فلسفة أخلاقية أكثر من كونها علماً مستقلا"[2]، وإذا حافظنا على موضوعنا، وهو السعادة، يمكننا القول إن غاية الأخلاق والسياسة واحدة، من حيث استحالة بلوغ الإنسان السعادة إذا هو اقتصر على مجهوده الفردي في تقويم نفسه وإتباع طريق الخير ونواهي الأخلاق وأوامر الدين فما تنهى عنه الأخلاق وما يأمر به الدين قد يظل مجرد شعارات جوفاء إن لم تعاضده تنظيمات سياسية.

ولهذا فسعادة الفرد مرتبطة بسعادة المجتمع، ويرى الفارابي أن الإنسان ولد بطبعه محتاجاً إلى غيره، وهي فكرة أخذها عن أفلاطون وأرسطو، ولتأكيد ذلك نورد عبارة الفارابي التالية التي يقول فيها: "وكل واحد من الناس مفطور على أنه محتاج في قوامه، وفي أن يبلغ أفضل كمالاته، إلى أشياء كثيرة لا يمكنه أن يقوم بها كلها هو وحده، بل يحتاج إلى قوم يقوم له كل واحد منهم بشيء مما يحتاج إليه. وكل واحد من كل واحد بهذه الحال. فلذلك لا يمكن أن يكون الإنسان ينال الكمال، الذي لأجله جعلت الفطرة الطبيعية، إلا باجتماعات جماعة كثيرة متعاونين، يقوم كل واحد لكل واحد ببعض ما يحتاج إليه في قوامه، فيجتمع مما يقوم به جملة الجماعة لكل واحد، جميع ما يحتاج إليه في قوامه وفي أن يبلغ الكمال"[3]، لقد أتينا بهذه المقولة من كلام الفيلسوف، حتى نثبت أن السعادة الفردية عنده مستحيلة دون السعادة الجماعية، أي سعادته وكماله مرهونة بالاجتماع بغيره، ومنه يكون الاجتماع وسيلة لا غاية، أما الغاية فهي بلوغ الكمال الذي به تكون "السعادة في الحياة الأولى والسعادة القصوى في الحياة الأخرى"[4]، وهذا يفضي بنا إلى البحث عن أفضل أنواع الاجتماع الإنساني التي تتحقق عن طريقها غايات الإنسان، وهي السعادة. لكن قبل الحديث عن المدينة الفاضلة عنده ومضاداتها، يجدر بنا التعرف على أنواع الاجتماعات الإنسانية لديه.

يقسم الفارابي الاجتماعات الإنسانية لديه إلى نوعين: الكاملة وغير الكاملة (الناقصة). والكاملة ثلاثة وهي: عظمى ووسطى وصغرى، فالعظمى هي جماعة أمم كثيرة تجتمع وتتعاون، أو اجتماع الجماعة كلها في المعمورة، أما الوسطى فهي اجتماع أمة في جزء من المعمورة*، أما الصغرى هي اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة، هذا عن الاجتماعات الإنسانية الكاملة، أما عن الاجتماعات الإنسانية غير الكاملة، فتعده هي الأخرى ثلاثة أنواع:

---

[1] -عثمان أمين، شخصيات ومذاهب فلسفية، الشركة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1972، ص 53.

[2] -جورج سعد، تطور الفكر السياسي) في العصور القديمة والوسطى)، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان، 2000، ص 209.

[3] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص 93.

[4] - الفارابي، الفارابي، تحصيل السعادة، المصدر السابق، ص 25.

* -يرى المفكر عاطف العراقي أن سبب قول الفارابي بأن أهم نوع من الاجتماعات الإنسانية الكاملة هو جماعة أمم كثيرة (الاجتماعات الإنسانية العظمى) هو أنه كان يسعى إلى إقامة تصور عن الدولة العالمية، وبحيث تضم دولة العالم كلها، كما يرى أن الفارابي خالف كل من أفلاطون وأرسطو بذكره لأنواع المجتماعات الكاملة، وقد يكون سبب ذلك، كما يرى عاطف العراقي، هو أن الفارابي إما كان متأثراً بنزعته الشيعية وما فيها من فكرة الإمام، أو قد يكون سببه أن الفارابي، وبحكم كونه فيلسوفاً من فلاسفة الإسلام، يعتقد بأن الإسلام صالح لأمم العالم كله من مشرقه إلى مغربه، ولذلك نجده كما يرى، يتحدث عن جماعة الأمم الكثيرة، أي الأمم التي تحكمها حكومة واحدة (عاطف العراقي، الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط5، 2004، ص 54-55).

1 -اجتماع أهل القرية أو اجتماع أهل المحلة.
2 -اجتماع في سكّة أي طريق.
3 -اجتماع في منزل، وهو يُعدّ أصغر هذه الاجتماعات.

بعد التعرف على تراتبية الاجتماعات الإنسانية بشكل موجز نعود الآن إلى التعرف على أفضل المدن التي تقود إلى تحقيق السعادة، ولهذا فالمدينة هي مرحلة الكمال الأولى التي يجب أن تمرّ بها الاجتماعات الكاملة، فالمدينة هي الخير الأفضل والكمال الأرفع، وكل ما دونها من اجتماعات فهو ناقص، هدف المدينة هو بلوغ الخير، ولذلك فالمدينة التي تحوّر غايتها إلى الشر مثلاً تنحرف ويكون مصيرها الهلاك، أما المدينة التي تقصد الخير، وتريد التعاون للوصول إلى السعادة، هذه فقط هي المدينة الفاضلة، واجتماعها القائم على التعاون لنيل السعادة، هو وحده الاجتماع الفاضل.

أما المدن الأخرى التي لا تحقق هذه الغاية فهي المدن المضادة للمدينة الفاضلة وبالتالي فهي مدن غير فاضلة، وسنعود للتعرف على هذه المدن بعد تعرفنا أولا على المدينة الفاضلة التي ينشدها الفارابي وهي نموذج لمجتمع إنساني راقٍ يؤدي كل فرد فيه وظيفته الخاصة التي تلائم كفاياته، حيث يشبه الفارابي المدينة الفاضلة بالبدن التام الصحيح تتعاون أعضاؤه في سبيل الحياة وحفظه، يقول الفارابي: "وكما أن البدن أعضاؤه مختلفة، متفاضلة الفطرة والقوى، وفيها عضو واحد رئيس هو القلب... كذلك المدينة، أجزاؤها مختلفة الفطرة، متفاضلة الهيئات، وفيها إنسان هو رئيس، وآخرون تقرب مرتبتهم من الرئيس"[1]، والفرق بين المدينة والبدن أن أعضاء البدن طبيعية والهيئات التي لها هي قوى طبيعية على حين أن أجزاء المدينة- وأن كانوا طبيعيين -فإن الهيئات والملكات التي يعقلون بها أفعالهم للمدينة ليست طبيعية، بل إرادية، هذا التشبيه الذي يقدمه الفارابي نجد أنه قد اقتبسه من "جمهورية" أفلاطون.

تنظير الفارابي للمدينة الفاضلة ولفكره السياسي عموماً "يتأثر بموقفه من النظام الكلي الذي يشمل الوجود، وهو نظام واجب الوجود، إذ أن المدينة لديه لا تكون فاضلة إلاّ إذا ناظرت في تكوينها الوجود وسادها النظام الذي يسوده عينه"[2]، بمعنى أن المدينة عند الفارابي شبيهة بمراتب الموجودات الطبيعية التي تبتدئ من الأول وتنتهي إلى المادة الأولى والإسطقسات*(التراب، والماء، والنار، والهواء)، ويكون ارتباطها وائتلافها شبيهاً بارتباط الموجودات المختلفة بعضها ببعض،كما " أن مدبر تلك المدينة شبيه بالسبب الأول الذي به وجود سائر الموجودات، ثم لا تزال مراتب الموجودات تنحط قليلاً فتكون كل واحدة منها رئيساً ومرؤوساً إلى أن تنتهي الموجودات الممكنة التي لا رئاسة لها أصلاً، بل هي خادمة وتوجد لأجل غيرها، وهي المادة الأولى والإسطقسات"[3].

وإذا كنا قد ذكرنا أن الإنسان يحتاج إلى أبناء جنسه ويعيش في مجتمع، وأن هذا الاحتياج مسألة فطرية وطبيعية، لكن الكيفية التي ينتظم فيها المجتمع ويساس ليست تلقائية ولا طبيعية، وإنما هو بحاجة إلى تنظيم وإلى شخص يتدخل كي يسبغ عليه النظام، وذلك هو الرئيس. وعلى هذا المنوال يكون رئيس المدينة الفاضلة، هو أكمل أجزائها فيما يخصه، ودونه

---

[1] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص 95.

[2] - منذر الكوثر، فلسفة الفارابي (الله، الوجود، الإنسان)، دار الحكمة، لندن، ط1، 2002، ص 270

* - إسطقس: (Élément) النطق العربي للكلمة اليونانية **استويخيون** وتعني العنصر، وكان الإغريق يقولون إن العناصر أربعة هي: الأرض، والماء، والنار، والهواء، وهذه العناصر الأربعة هي أصول المركبات، ومنها تتألف الأجسام المختلفة الطباع. والفارابي يقول الإسطقسات أربعة، والإسطقس هو الأصل، والخوارزمي يسميه الركن، وأفلاطون أول من قال به في محاورة طيماوس (عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط3، 2000، ص 59).

[3] - الفارابي، كتاب السياسة المدنية، المصدر السابق، ص 95.

قوم مرؤوسون منه، ويرئسون بدورهم آخرين. والرئيس بنظر الفارابي"هو الإنسان الذي حلّ فيه العقل الفعّال*"[1]، وهذا يدل على "أن رئيس المدينة الفاضلة الذي تصوره الفارابي مختلف عن الحاكم الفيلسوف الذي تصوره أفلاطون لأنه ليس فيلسوفاً فقط، وإنما هو نبي يُوحى إليه"[2]، وهذه تقربه من التعاليم الإسلامية، لأنه نقطة الاتصال بين العبد وربه، وكما تقوم الأعضاء بأفعالها الطبيعية، حسب غرض القلب، متفاوتة في العمل من الشريف إلى البسيط فالخسيس، تبعاً لشرف الموضوع أو قلة غنائه أو فرط سهولة، هكذا الحال في المدينة، إذ يقوم الأعضاء بأفعالهم الإرادية المتباينة في السمو والضعة وفق مقصد الرئيس وإرشاده وتوجيهه ويكونون درجات متفاوتة من حيث الرئاسة أو الخدمة. وإذا كان هذا هو مركز الرئيس من المدينة، فما هي الصفات التي يجب أن يتحلى بها رئيس المدينة الفاضلة؟ لرئيس المدينة، في فلسفة أبو نصر الفارابي شرطين عامين: أولهما أن يكون بالفطرة والطبع مُعداً للرئاسة، وثانيهما أن يكتسب خصالاً معينة بالإرادة. وإنما يكون معداً بالفطرة للرئاسة إذا اجتمعت فيه "اثنتا عشرة شرطاً" يكون قد فطر عليها، أي تكون له طبيعية، وليس مما يكتسب، وهي أن يكون:

1 -تام الأعضاء، سليم الجسم.
2 -جيد الفهم والتصور.
3 -جيد الحفظ الأخير بقلم.
4 -جيد الفطنة ذكياً.
5 -حسن العبارة ليس في لسانه عيب.
6 -محباً للتعليم.
7 -غير شره على المأكول والملبوس والمنكوح.
8 -محباً للصدق وأهله.
9 -كبير النفس محباً للكرامة.
10 -غير مهتم بأعراض الدنيا كالمال.
11 -محبا للعدل بالطبع، مبغضاً للجور بالطبع.
12 -قوي العزيمة.

وإلى جانب هذه الخصال التي يجب أن تكون في الرئيس بالطبع، هناك شروط أخرى يشترطها فيمن يكون سبيله إلى الرئاسة وهي:

" 1 -أن تكون نفسه كاملة متحدة بالعقل الفعال، فيقف على كل فعل يمكن أن يبلغ به السعادة.
2 -أن تكون له قدرة بلسانه على جودة التخيل بالقوة لكل ما يعمله.
3 -وقدرة على جودة الإرشاد إلى السعادة.
4 -إلى الأعمال التي بها تبلغ السعادة.
5 -وأن يكون له مع ذلك جودة ثبات ببدنه لمباشرة الجزئيات"[3]، لكن الفارابي يلاحظ أن اجتماع هذه الخصال كلها في شخص واحد أمر عسير أو نادر، ولذلك لا يوجد من فُطر على هذه الفطرة إلا الواحد بعد الواحد من الناس.

---

* -العقل الفعّال (واهب الصور): هو الحلقة التي تق=فصل وتصل فيما بين عالم ما فوق القمر أو عالم العقول المفارقة وعالم ما تحت فلك القمر أو الموجودات الملابسة للمادة والمركبة من مادة وصورة. وللعقل الفعّال في فلسفة الفارابي دوره في نقل ما هو بالقوة إلى ما هو بالفعل في الموجودات التي يهبها الصور ويحيلها من درجة الإمكان إلى درجة الوجود. وهو الوسيلة والمعونة الخارجية الدافعة إلى حصول المعرفة والضامن ليقينيتها، وهو أيضاً الهادي لنور النبوة والحكمة عند العقلاء والحكماء.

[1] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص 101.

[2] - جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط3، 1995، ص 173.

[3] -محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص 361.

وإذا فقدت الحكمة من الرياسة تعرضت المدينة للهلاك، ويتجلى ذلك في قيام مدن فاسدة شريرة في الرأي والقول والعمل يسميها الفارابي "مضادات المدينة الفاضلة"، وهذه المضادات خمس وهي: المدينة الجاهلة، والمدينة الفاسقة، والمدينة المتبدلة، والمدينة الضالة، والنوابت.

1 -المدينة الجاهلة: وهي "التي لم يعرف أهلها السعادة ولا خطرت ببالهم، وإن أُرشدوا إليها فلم يقيموها ولم يعتقدوها، وإنما عرفوا من الخيرات بعض هذه التي هي مظنونة في الظاهر أنها خيرات من التي تظن أنها هي الغايات في الحياة، وهي سلامة الأبدان واليسار والتمتع باللذات، وأن يكن مُخلّى هواه وأن يكون مكرماً ومعظماً، فكل واحد من هذه سعادة عند أهل الجاهلية"[1]، وتنقسم المدينة الجاهلية بدورها إلى عدة مدن:

أ -المدينة الضرورية: وهي التي قصد أهلها الاقتصار على الضروري مما به قوام الأبدان، من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح والتعاون على استفادتها.

ب -المدينة المبدّلة: وهي التي قصد أهلها أن يتعاونوا على بلوغ اليسار والثروة ولا ينتفعون باليسار في شيء آخر، لكن على أن اليسار هو الغاية في الحياة.

ج -مدينة الخسة والشقاوة: وهي التي قصد أهلها التمتع باللذة من المأكول والمشروب وبالجملة اللذة من المحسوس والمتخيل وإيثار الهزل واللعب بكل وجه ومن كل نحو.

د -مدينة الكرامة: وهي التي قصد أهلها على أن يتعاونوا على أن يصيروا مكرمين ممدوحين مذكورين مشهورين بين الأمم.

ه -مدينة التغلب: وهي التي قصد أهلها أن يكونوا القاهرين لغيرهم، الممتنعين أن يقهرهم غيرهم ويكون كدهم اللذة التي تنالهم من الغلبة فقط.

و -المدينة الجماعية: وهي التي قصد أهلها أن يكونوا أحراراً يعمل كل واحد منهم ما يشاء لا يمنع هواه في شيء أصلاً.

2 -المدينة الفاسدة: وهي التي آراؤها الآراء الفاضلة، أفعال أهلها كأفعال أهل المدن الجاهلية. بمعنى أنها تعرف علوم المدينة في الله والسعادة والعقول، ولكنها تفعل أفعال المدن الجاهلة.

3 -المدينة المتبدلة: فهي التي كانت آراؤها وأفعالها في القديم آراء المدينة الفاضلة وأفعالها، غير أنها تبدلت فدخلت فيها آراء غير تلك، واستحالت أفعالها إلى غير تلك"[2].

4 -المدينة الضالة: وهي التي كانت تقر بالسعادة بعد هذه الحياة الدنيا ولكنها كفرت بذلك واعتقدت في الله -عز وجل -وفي الثواني وفي العقل الفعّال آراء فاسدة. ويكون رئيسها ممن أوهم أنه يوحى إليه، فيستعمل الغرور والخداع والتمويه.

5 -النوابت*: وهذه توجد في المدن الفاضلة وفي غيرها من المدن، وهم عبارة عن أناس يضرون المجتمع، ويرى الفارابي إن النوابت في المدن منزلتهم فيها منزلة الشيلم من الحنطة أو الشوك النابت فيها بين الزرع، ثم البهيميون من الناس، وهم ليسوا مدنيين، بل يكون بعضهم على مثال ما عليه البهائم الإنسية وبعضهم مثل البهائم الوحشية وبعضهم مثل البهائم الوحشية وهؤلاء ينبغي أن يجروا مجرى البهائم: "فمن كان إنسياً وانتُفع به في شيء من المدن تُرك واستُعبد واستُعمل كما تُستعمل البهيمة. ومن كان منهم لا ينتفع به أو كان ضاراً عُمل به ما يُعمل بسائر الحيوانات

---

[1] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص 107.

[2] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر نفسه، ص 109.

* -فكرة النوابت هذه تأثر بها الفيلسوف ابن باجة (475-533هـ) لكنه يعطيها معنى مغاير، فالنابت عنده هو "المتوحد" الذي يعيش طبقاً لدواعي الإرادة العاقلة ويحرص على تنمية عقله في جو من الحرية، وهذا لا يتأتى له إلا باعتزال الناس، والعكوف على تربية نفسه، ثم يتصل بأقرانه من الحكماء فيُكونون مجتمعاً في ظل المجتمع الذي يعيشون فيه، بمعنى أن المتوحدين يتموضعون في ذواتهم بحيث يسعون =إلى تربيتها، كما أنهم يتموضعون في مجتمع موحد الآراء، في يغتربون عن الانحرافات والضلالات المتفشية في المدن الناقصة، وسلوكهم وفق منهج عقلي يهيئون به أسباب السعادة في الدنيا والآخرة.

الضارة"[1]، إن الهدف الذي كنا نرمي إليه من خلال التطرق إلى عنصر علاقة المدينة الفاضلة بالسعادة عند الفارابي، هو أن الغاية القصوى التي كان يرمي إليها المعلم الثاني ليست السياسة في حد ذاتها بقدر ما كانت تحصيل السعادة التي كانت شغله الشاغل في كل مؤلفاته تقريباً.

3-الفضيلة:

إذا كنا قد أكدنا على أن تحصيل السعادة كانت محور اهتماماته الفلسفية، فإننا سنلاحظ في هذا العنصر، وهو الذي سنتطرق فيه إلى الفضلة وأنواعها وكيفية تحصيلها، قلت سنلاحظ أن ممارسة الفضيلة ما هي إلا طريق في الحقيقة لتحصيل السعادة، ومن هنا تبرز أهمية التعرف على " الفضيلة" التي أولى لها المعلم الثاني عناية بالغة في عدد من مؤلفاته، بحيث يُعتبر البحث في الفضيلة وأنواعها من صُلب المباحث الأخلاقية عند الفارابي.

إذا بدأنا بتعريف الفضيلة* عند الفارابي، فإن أول ملاحظة تستوقفنا هي أننا لا نجد تعريفاً محدداً للفضيلة، وكل ما نجده هو أقوال متناثرة في مجموعة من مؤلفاته، لكننا سنحاول أن نجد رابط بين هذه الأقوال، ومنه نقدم تعريفاً وتصوراً للفضيلة. في كتابه "فصول منتزعة" ويسمى أيضاً (فصول المدنيّ) يرى أن "الغرض في الفضيلة واحد هو الخير الذي يراد لنفسه لا لشيء آخر غيره"[2]، ولذا ارتبطت الفضيلة بفعل الخير والجميل، كما ارتبطت الرذيلة بفعل الشر والقبيح. ونفس هذا المعنى تحمله الفضيلة في موضع آخر من هذا الكتاب، حيث نقرأ للفارابي ما يلي: "الهيئات النفسانية التي بها يفعل الإنسان الخيرات والأفعال الجميلة التي هي الفضائل، والتي بها يفعل الشرور والأفعال القبيحة هي الرذائل والنقائص"[3]، ومن هذين المقولتين نكتشف مدى تأثر الفارابي بأرسطو، الذي يرى هو الآخر أن الفضيلة هي خير يراد به بلوغ السعادة، وأننا مهما طلبنا الفضيلة لذاتها فإننا "مع ذلك نرغب فيها أيضاً من أجل السعادة، في حين أنه لا يمكن أن يبغي السعادة لا من أجل هذه المزايا، ولا بوجه عام من أجل أي شيء كان سواها"[4]. أما في كتابه "التنبيه على السعادة" فإننا نجده قد استعار "نظرية الوسط العدل" الأرسطية، فهو يقول: "وكمال الإنسان في بدنه هو الصحة، وكما أن الصحة متى كانت حاصلة فينبغي أن تحفظ ومتى لم تكن فينبغي أن تكتسب، وكما أن الأمور التي بها تحصل الصحة إنما تحصل متى كانت بحال التوسط، فإن الطعام

---

[1] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص 107.

* - فضيلة(Virtue) من **الفَضل** بمعنى الزيادة في الخير، أو الإحسان ابتداءً بلا علّة، أو الغلبة والقوة كما نقول بفضل الله، أي بعونه، وبفضل كذا(en vertu de) أي بقوة كذا، ففضيلة الشيء هي قوته التي يكون بها امتيازه أو كماله الخاص، كما يقال فضيلة السيف إحكامه القطع. ومصدر الفضيلة فعيلة، والعرب تبني به عمّا دلّ على الطبيعة غالباً، فنأتي بالفضيلة إذا قُصد بها صفات الكمال للإشعار بأنها لازمة دائماً، وبذلك تكون الفضيلة هي عادة فعل الخير الراسخة، ويشترط لها **أرسطو** العلم والإرادة. وأساس الترغيب فيها إمكان تغيير الخُلق، فلو لم يكن ذلك ممكناً لبطلت الوصايا والمواعظ، والمقصود مجاهدة النفس ورياضتها على الأعمال الصالحة لتهذيب أخلاقها، إذ أن سعادة النفس في كمالها، وهي وإن كانت كثيرة إلا أنها تجمعها أربعة تشتمل شُعبها وأنواعها، وتسمى أمهات الفضائل وهي الحكمة والشجاعة والعفّة والعدالة، فالحكمة فضيلة القوة العقلية، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفّة فضيلة القوى الشهوانية، والعدالة عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب، وبها تتم جميع الأمور. ومثلما هذه القوى في النفس فإن لها ما يقابلها في المجتمع في طبقاته، فالحكمة فضيلة أهل الفلسفة. والفضيلة اعتدالٌ بين طرفين كلاهما رذيلة، فالحكمة مثلاً وسط بين السَفَه والبَلَه، والشجاعة وسط بين التهوّر والجُبن. والفضائل هيئات نفسانية تصدر عنها الأفعال المحمودة. وفرقوا في العصور الوسطى بين الفضائل الخُلُقية(verti morales) وهي الفضائل الأربعة السابقة، وبين الفضائل الدينية (Verti theologaies) وهي الإيمان والرجاء والمحبة والفضيلة السياسية (Vertue politique) هي التزام القانون وحب الوطن وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة (عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ط3، 2000، ص 591).

[2] -الفارابي، فصول منتزعة، حققه فوزي نجار، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط4، 1968، ص 101.

[3] - الفارابي، فصول منتزعة، المصدر نفسه، ص 24.

[4]- أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة أحمد لطفي السيد، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، مصر، 1924، ج1، ص191.

متى كان متوسطاً حصلت به الصحة، والتعب متى كان متوسطاً حصلت به القوة، كذلك الأفعال متى كانت متوسطة حصّلت الخُلُق الجميل"[1]، إن الفضيلة عند الفارابي كما نفهمها من هذا القول هي ملكة اختيار الوسط العدل، بمعنى ليس هو الوسط الحسابي، لأن الوسط العدل يحدد المعيار وهو "متى أردنا الوقوف على المقدار الذي هو توسط في الأفعال، تقدمنا فعرفنا زمان الفعل والمكان الذي فيه الفعل ومن منه الفعل ومن إليه الفعل وما من الفعل وما به الفعل وما من أجله وله الفعل، وجعلنا الفعل على مقدار كل واحد من هذه فحينئذ نكون قد أصبنا الفعل المتوسط "[2]، لقد استعار الفارابي من أرسطو المعيار الذي به نحدد الوسط العدل، والذي يختلف من شخص إلى آخر.

بعد أن حددنا ماهية الفضيلة عند الفارابي، ننتقل إلى تقسيمه للفضائل، وهذا التقسيم توجزه عبارته التالية: "إن الأشياء الإنسانية الجميلة التي إذا حصلت في الأمم وفي أهل المدن حصلت لهم السعادة الدنيا في الحياة الأولى والسعادة القصوى في الحياة الأخرى أربعة أجناس: الفضائل النظرية، والفضائل الفكرية، والفضائل الخلقية والصناعات العملية"[3]، إن الفضائل أربعة أنواع، وهي مرتبة ترتيباً تنازلياً يبدأ بالفضائل التي أهم خصائصها معرفة واجب الوجود بذاته، ثم تنتهي بالصناعات العملية وهي:

1-الفضائل النظرية: وهي العلوم الأولى أو المبادئ الأولية للمعرفة كمبادئ الهندسة، و"هي العلوم منها ما لا يحصل للإنسان منذ أول أمره من حيث لا يشعر ولا يدري كيف ومن أين حصلت، وهي العلوم الأولى المركوزة في النفس ولا يمكن تحصيل غيرها إلا بواسطتها، ومنها ما يحصل بتأمل وعن فحص واستنباط وعن تعليم وتعلم"[4]، وبالجملة فهي العلم بالأشياء علماً نظرياً من حيث هي موجودات لا من حيث منفعتها العملية.

2-الفضائل الفكرية: ترتبط هذه بالفضائل النظرية بشكل وثيق، وهي التي تستنبط ما هو أنفع في غاية ما فاضلة، وأما القوة الفكرية التي يستنبط بها ما هو أنفع في غاية هي الشر فليست هي فضيلة فكرية، وهي "على الأرجح علوم السياسة والاقتصاد وفن الحرب"[5].

3-الفضائل الخلقية: وهذه الفضائل تنظر في عمل الحق والخير، بمعنى تهتم بالبحث في السلوك الأخلاقي للإنسان وهي التي يتحقق كمالها متى كانت قوتها قوة الفضائل كلها، وهذه الأنواع الثلاثة مرتبطة بعضها ببعض، فالفضيلة الفكرية تابعة للنظرية، والفضيلة الفكرية هي التي تستنبط الفضيلة الخلقية.

4-الفضائل (الصناعات) العملية: هي التي يراد بها اكتساب الفنون العملية المعروفة، والفضائل العملية عند الفارابي هي الممارسة الفعلية للخير، ونقل الفضيلة من الصعيد النظري إلى الصعيد العملي، وتحصيل الفضائل المختلفة في الأمم يكون بطريقتين أوّليتين: بتعليم وتأدب " فالتعليم هو إيجاد الفضائل النظرية في الأمم والمدن، والتأديب هو طريقة إيجاد الفضائل الخلقية والصناعات العملية في الأمم"[6]، وثمة فرقان بين التعليم والتأديب في نظر الفارابي: التعليم يرمي إلى إيجاد الفضائل النظرية والتأديب يرمي إلى إيجاد الفضائل الخلقية. والتعليم يكون بالقول فقط، بينما التأديب يكون بالقول والفعل. ويمكننا القول أن الفارابي "يحاول أن يعمم نظرية أرسطو في الفضائل الأخلاقية على سائر أجناس الفضائل"[7]، وهناك تقسيم آخر للفضيلة لديه، حيث يقسمها إلى فضيلة خلقية ونطقيّة، "فالنطقية هي فضائل الجزء الناطق من الحكمة والعقل والكيس والذكاء

[1] - ماجد فخري، المرجع السابق، ص 309.
[2] - ماجد فخري، المرجع نفسه، ص 310.
[3] - الفارابي، الفارابي، تحصيل السعادة، المصدر السابق، ص 25.
[4] - الفارابي، الفارابي، تحصيل السعادة، المصدر نفسه، ص 26.
[5] -محمد علي أبوريان، المرجع السابق، ص 380.
[6] - الفارابي، الفارابي، تحصيل السعادة، المصدر السابق، ص 71.
[7] - محمد علي أبوريان، المرجع السابق، ص 382.

وجودة الفهم، والخلقية هي فضائل الجزء النزوعيّ مثل العفّة والشجاعة والسخاء والعدالة"[1]، إذن الفضيلة النطقية متعلقة بالقوة الناطقة وهي، كما سلف الذكر، خاصة بالإنسان، وتمكنه من إدراك المعقولات والتمييز بين الجميل والقبيح، أما الفضيلة الخلقيّة فهي مرتبطة بالقوة النزوعية وهي "التي بها يطلب الإنسان الشيء، أو يهرب منه، ويشتاقه أو يكرهه، ويؤثره أو يتجنبه وبها تكون البغضة والمحبة والصداقة والعداوة والخوف والأمن والغضب والرضا والشهوة والرحمة وسائر عوارض النفس"[2]. من هذا القول ندرك بأن الفضيلة الخلقية مرتبطة بالإرادة أما الفضيلة النطقية فقائمة على الاختيار، لأن الاختيار يقوم على التفكير والروية.

4-علاقة الفضيلة بالإرادة:

لقد ذكرنا آنفاً أن الفضائل طريق السعادة، لكن الفضائل منها ما هي كائنة بالطبع ومنها ما هي كائنة بالإرادة، فحرية الإرادة عند الفارابي هي دعامة الأخلاق، وهذا نلمسه من قوله: "والسعادة ليست تنال بالأفعال الجميلة، متى كانت عن الإنسان لهذه الحال، لكن أن تكون له وقد فعلها طوعاً وباختياره"[3]، فحرية الإرادة شرط لتحقيق السعادة، ويتعمق الفارابي في شرح العمل الإرادي، فيفرق بين الإرادة والاختيار، ويربطهما بالفعل الأخلاقي، فالإرادة قائمة على نوع من الإحساس والتخيل، بينما الاختيار ناجم عن الرويّة والنطق، يقول الفارابي: "فعندما تحصل هذه المعقولات للإنسان يحدث له بالطبع تأمل وروية وذكر وتشوق إلى الاستنباط، ونزوع إلى بعض ما عقله، وشوق إليه وإلى بعض ما يستنبطه، أو كراهيته، والنزوع إلى ما أدركه بالجملة هو الإرادة، فإن كان ذلك عن روية أو عن نطق في الجملة سمي الاختيار، و هذا يوجد في الإنسان خاصة، أما النزوع عن إحساس أو تخيل فهو أيضاً في سائر الحيوان"[4]، فالمعلم الثاني يفرق تفريقاً واضحا بين الإرادة والاختيار، ويرى أن الأولى وليدة شوق ورغبة يبعثهما الحس والتخيل، في حين أن الاختيار لا يكون إلا وليد تفكير وتدبر، وهو مقصور على الإنسان، وكأنه يهبط بالإرادة إلى مستوى النزوع، وبذلك يمكن أن تعزى إلى الحيوان، وسبب هذه التفرقة هو محاولة جعل الاختيار أساساً للفعل الأخلاقي، لأنه مقصور على الإنسان، بينما الإرادة شاملة للإنسان والحيوان. وفي كتابه "التنبيه على السعادة" يقسم الفارابي الناس بحسب أخلاقهم إلى أحرار وبهيميين وعبيد، بحسب جودة تفكيرهم، ومدى قوة عزيمتهم على الأخذ بما يوجبه تفكيرهم، فالإنسان الحر هو الذي يكون تفكيره ورويته جيدة ويكون له من العزيمة ما يمكنه من الأخذ بما يمليه عليه تفكيره، أما الإنسان الذي ليس لديه جودة الفكر ولا قوة العزيمة، ففي عادتنا أن نسميه كما يرى الفارابي الإنسان البهيمي، ومن كانت له جودة الروية فقط، دون قوة العزيمة سميّناه العبد بالطبع.

5-موقف الفارابي من اللذة:

يحذو الفارابي حذو أرسطو في تقسيم النفس إلى جزء حسي وجزء عاقل، وكل جزء يطلب لذاته، فاللذات منها ما يتبع المحسوس، مثل اللذات التابعة لمسموع أو منظور أو مشموم، ومنه ما يتبع المفهوم مثل اللذات التابعة للرياسة والتسلط والغلبة والعلم وما أشبه ذلك، فما يمكننا ملاحظته من هذا، هو أن الفارابي مثل أرسطو يعدد أنواع اللذات فاللذات الجسدية سهلة المعرفة وقريبة المنال، لكنها سريعة الزوال وعائقة عن أعظم ما تنال به السعادة فهي إلى بهيمية الحيوان أقرب، أما اللذات العقلية (الفكرية) فهي بعيدة المنال لكنها طويلة الأمد، وهي التي يجب السعي وراءها لأنها متعلقة بالجانب العاقل من الإنسان، وهو أشرف جانب فيه، ومنه يكون التعقل هو الفعل المطابق لخير الإنسان الأقصى أي لسعادته، فالحكمة إذن هي فضيلة الإنسان، بل هي أسمى فضائله، وهذه الفكرة الأخيرة تعكس تأثر الفارابي بسقراط و أفلاطون اللذين جعلا الفضيلة على رأس الفضائل،

[1] - الفارابي، فصول منتزعة، المصدر السابق، ص 24.
[2] - الفارابي، كتاب السياسة المدنية، المصدر السابق، ص 24.
[3] - ماجد فخري، المرجع السابق، ص 307.
[4] - الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص79.

والفارابي يرى أن القوة التي تساعد على التمييز بين اللذتين هي الفلسفة، "إذ أنه لما كانت السعادات إنما ننالها متى كانت الأشياء الجميلة فنية، وكانت الأشياء الجميلة إنما تصير فنية بصناعة الفلسفة، فلازم ضرورة أن تكون الفلسفة هي التي بها تنال السعادة"[1]، وعليه فإن السعادة تنال بأشرف لذة وهي لذة التأمل العقلي.

الخاتمة:

ما نلاحظه في ختام هذا المقال، هو أن الفلسفة الخلقية الفارابية ترجع بجذورها إلى الفلسفة اليونانية عامة والفلسفة الأرسطية خاصة، ولقد أثبت الفارابي، كما يرى أحد الدارسين لفكره، قدرته الكبيرة على تكييف الغنى الساحق للأفكار الفلسفية اليونانية مع حسن الحنين إلى الله لدى الشرقيين ومع تجربته الصوفية الخاصة، لكن هذا لا يمنعنا من التأكيد على شيء مهم وهو أن بصمات انتمائه الثقافي الشرقي والديني جلي وواضح، وهنا مكمن أصالته الفكرية.

مراجع البحث:

1-الفارابي، إحصاء العلوم، المركز القومي، بيروت، لبنان، 1991.
2-الفارابي، تحصيل السعادة، قدم له وعلق عليه وشرحه علي بوملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، 2006.
3-الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990.
4-الفارابي، كتاب السياسة المدنية، قدّم له وشرحه وبوّبه علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 1996.
5-الفارابي، كتاب الملة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1990.
6-الفارابي، فصول منتزعة، حققه فوزي نجار، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط4، 1968.
7-محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1986.
8-ت، ج، دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الدار التونسية للنشر، 1980.
9-ناجي التكريتي، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط2، 1992.
10-محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
11-فوزي عطوي، الفارابي، (سلسلة أعلام الفكر العربي)، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1 , 2002.
12-ماجد فخري، الفكر الأخلاقي العربي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1987.
13-حنا الفاخوري وخليل الجر، تاريخ الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط3، 1992، ج2. 14-عثمان أمين، شخصيات ومذاهب فلسفية، الشركة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1972.
15-جورج سعد، تطور الفكر السياسي) في العصور القديمة والوسطى)، منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان، 2000.

[1] - ماجد فخري، المرجع السابق، ص 315.

16-عاطف العراقي، الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل، دار الرشاد، القاهرة، مصر، ط5، 2004.
17-منذر الكوثر، فلسفة الفارابي (الله، الوجود، الإنسان)، دار الحكمة، لندن، ط1، 2002.
18-جميل صليبا، تاريخ الفلسفة العربية، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ط3، 1995.
19-أرسطو، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة أحمد لطفي السيد، مطبعة دار الكتاب المصرية، القاهرة، مصر، 1924، ج1.
20-MAJID FAKHRY ،*HISTOIRE DE LA PHILOSOPHIE ISLAMIQUE* (traduit de l'ang Marian nasr, les éditions du CERF, Paris, 1989.